أرى ثياباً وفى أثنائها بقرٌ بلا قرُون وذا عيبٌ على البقر

ففضل البقرَ على الناس . وقديماً وصم الجاهليون خصومهم فجعلوهم تيوساً وكلاباً وخنازير . فاستعملوا الحيوان فى رسم صورة الإنسان المهجوّ ، ثم شوهوا صورة الحيوان فاختاروه بشعاً قبيح المنظر لينالوا من عدوّهم إلى أبعد الحدود .

وقد كثرت شكوى الشعراء من الناس وأخلاقهم وطبائعهم ، وفشا الذم من الزمان والأهل والأقارب والأصحاب . والبلد والقطر والإقليم فقالوا كثيراً مما لا يحصيه عدّ ، حتى كان لهم باب فى هجاء المدن والبلاد ، دخله شعراؤهم ليحطوا من قدر المكان وسكانه . فقال ابن عنين يهجو مدينة بخارى :

آليت لا آتى بخارى بعدها ولو انها فى الأرض دار خلود
فلقدْ حللتُ بها حنيفاً مسلماً ورحلتُ عنها باعتقاد يهودى

وكذلك تسوء المدينة فى عين ساكنها حتى ليتمنى أن يستبدل بدينه ديناً آخر بل إنه ليقول إن هذا البلد لتخرجه عن دينه لشدة ما يتحمل من أهلها فى الغلاظة والإجحاف ونكران الجميل أو غير ذلك من أخلاق وطبائع ، ولقد هجا حلب الشهباء كذلك فقال فيها :

لا عادَ فى حلَب زَمانٌ مر لى ما الصبح فيه من المساء بأمثل
سيان فى عرصاتها رأد الضحى عندى وديجور الظلام المسبل
فى معشر لعنوا « عتيقاً » لاسقوا[1] صوبَ الغمام ومعشر لعنوا « على »
قومٌ عهودُ رجالهم محلولةٌ . أبداً وعهدُ - نسائهم لم يحلل

فقد تساوى فى نظره صباحُ المدينة ومساؤها . والظلام والنور وخلط القوم فيها بين أبى بكر وعلىّ . فسبّوا كلا منهما ولعنوه فلا مبدأ لهم ولا عهد لرجالهم ، وهذا هجاءٌ قوى مر يشين البلد وينال منه .

وفى العصر الحديث تناول الشعراء بلادهم باللوم والهجاء والعتاب ، كما

---

(١) العتيق : أبو بكر الصديق ، لجماله